من مفكرتي

بقلم: ناصر مجدي

رسوم: غسان السباعي

متى تعود أُمِّي؟

كُنتُ أجْلِسُ على حجرٍ أمامَ بابِ بيتِنا، لقدْ تحطّمَ بيتُنا بعدَ أنْ سقطَ فوقهُ ليلةَ أمسِ شيءٌ انْفجرَ بقوّةٍ، ولمْ يتركْ منْ بيتِنا إلاّ غرفةً واحدةً وبعضَ الحيطانِ المهدّمةِ. أنا أبكي منذُ الصّباحِ، لأنَّ أُمِّي تأخّرتْ جداً، وأنَا جائعةٌ جدّاً.

وأبكي أيضاً لأنَّ عينيَّ تُحرقاني منَ الدُّخانِ الّذي يملأُ المكانَ حولي، والحرائقِ الّتي تشتعلُ في بعضِ المنازلِ في بلدتِنا.

لقدْ تأخّرتْ أُمِّي جداً، إنَّها تذهبُ صباحَ كلِّ يومٍ لِتُحضرَ لي اللَّبنَ والخُبزَ، فلماذا تأخّرتْ هذهِ المرَّةَ؟

احتضنْتُ عَروسي الصَّغيرةَ منْ شدّةِ البردِ، وانتظرتُ. غابتِ الشّمسُ وبدأَ الظّلامُ يملأُ السّماءَ، ومصابيحُ بلدتِنا كلُّها مطفأةٌ.

فجأةً، سمعتُ صُراخاً وصِياحاً، والنّاسَ يجرّونَ ويدخلونَ البيوتَ المُحطّمةَ. بسرعةٍ أحدُهم يقولُ: إنّهم قادمونَ، وصاحَ آخرونَ: لقدْ دخلوا بلدَتَنا.

وقفتُ وقلبي يدقُّ منَ الخوفِ، ولا أفهمُ ما يحدثُ، ومَنْ هُمُ القادمونَ.

ومنْ بعيدٍ ظهرَتْ أضواءُ سيّاراتٍ، صوتُها مُخيفٌ.

جريْتُ بسرعةٍ، ودخلتُ الغرفةَ الباقيةَ منْ بيتِنا، وأغلقتُ البابَ، ووقفتُ خلفهُ في الظّلامِ وأنا أشعرُ بالرُّعبِ.

إقتربتْ أصواتُ السّياراتِ، وسمعتُ أصواتَ رجالٍ وصرخاتٍ، وصوتاً مثلَ طلقاتِ الرّصاصِ الّتي أسمعُها في برامجِ التّلفازِ.

أصواتُ أقدامٍ تقتربُ منْ بيتِنا، وتدخلُ منْ بابِهِ المحطّمِ. يا إلهي!..

أينَ أختبىءُ؟ جريتُ نحوَ الفراشِ.

سقطتْ عروسي من يدي وأنا أجري، خِفتُ أنْ أرجعَ. زحفتُ وتكوّرْتُ تحتَ الفراشِ، وقلبي يدُقُّ بسرعةٍ.

إقتربَتِ الخطواتُ الثّقيلةُ منْ بابِ الغرفةِ، وبصدْمةٍ قويّةٍ منَ القدمِ انفتحَ البابُ، فرأيتُ شبحَ رجلٍ ضخمٍ، يظهرُ في ضوءٍ خافتٍ منْ فُتحةِ البابِ.

الشّبحُ يرتدي ملابسَ الجنودِ، ويحملُ بندقيةً، إنّها أكبرُ منْ بندقيّةِ صديقي يوسفَ، الّذي كانَ يلهو معي بها أمامَ بيتِنا.

كانَ صوتُ أنفاسِ الشّبحِ مُرْتفِعاً ذكّرني بصوتِ أنفاسِ الثّورِ الأسودِ الكبيرِ، الّذي رأيتهُ ذاتَ مرّةٍ في حديقةِ الحيوانِ وكانَ غاضباً.

ملأتِ الغرفةَ رائحةٌ كريهةٌ.

أغمضتُ عينيَّ منْ شِدّةِ الخوفِ، وقلبي يدقُّ ويقفزُ في صدري.

إقتربَ منّي فرأيْتُ حِذاءهُ الضّخمَ يقتربُ. توقّفتُ عنِ التنفّسِ حتّى لا يسمعَني. خطا خُطوةً أُخرى، فَدَهَسَ عَروسي الجميلةَ بحذائهِ، فَسَمِعْتُ صَرختَها.

لقدْ كانتْ تقولُ «ماما» وتُغمضُ عينَيْها عِندَما أُميلُها لأسفلَ، ولكنّها هذهِ المرَّةَ صرختْ، عندَما دهسها بحذائهِ، ثمَّ صمتتْ تماماً.

رفعَ الشّبحُ حذاءهُ عنْها، يا للخسارةِ، لقدْ تحطّمتْ عَروسي الصَّغيرةُ.

أخذَ الشّبحُ يقلّبُ بعضَ الأشياءِ في الغرفةِ. تُرى، عمّ يبحثُ... هلْ هوَ لصٌّ؟

أخذَ يحطّمُ كلَّ شيءٍ، ويقولُ كلماتٍ كثيرةً لا أفهمُها، وهوَ غاضبٌ جدّاً. أخيراً، استدارَ وخرجَ منَ البابِ.

بدأتُ أتنفَّسُ. زحفتُ منْ تحتِ الفراشِ وأنا أرتعشُ، ومددْتُ يدي بسرعةٍ وأخذتُ عَروسي، وعُدتُ تحتَ الفراشِ.

آهٍ.. عَروسي الحبيبةُ كانتْ مُحطَّمةً تماماً، ولكنّها كانتْ شُجاعةً فلمْ تبكِ. قَبّلتُها وضممْتُها إلى صَدري.

آهٍ.. أنا جائعةٌ جداً. سألتُ عَروسي: تُرى متى تعودُ أُمِّي؟

جاءتْ جارتُنا الطيّبةُ، وجلستْ بجواري، وربّتتْ على ظهري وقالتْ: تعالَيْ معي إلى بيتي. قُلْتُ لها: لا. سأنتظرُ أُمِّي.

لا أعرفُ لماذا بكتْ جارتُنا... هل الدُّخانُ يحرقُ عينيها مِثلي؟